يُقصِّر مع بعض عملائه في القاهرة، فلا يؤدي إليهم حقوقهم في إبَّانها، وإذا هو مضطر إلى أن يتخفف من بعض ما اختزن من العروض يبيعها بثمن بخس ليؤدي بعض ما عليه من دين، وقد خطر له ذات ليلة وهو قاصد إلى غرفة أم خالد أن يهبط إلى القاهرة ليرى عبد الرحمن، فيعلم علمه، ويسأل عن نفيسة وابنتيها؛ فقد أهملهن منذ زمن طويل، ومن يدري، لعله أن يجرؤ فيلتمس عند صهره شيئًا من معونة، فلما انتهى إلى غرفة أم خالد جلس على مصلاه، فدعا واستغفر وصلى وتلا القرآن واستخار الله، ولم يهمل بعد أن صلى الصبح أن يقرأ سورة «يس» سبع مرات يعقبها في كل مرة بدعائها المعروف. فلمَّا فرغ من ذلك غفا غفوة ثم استفاق، وإذا محمود يحمل إليه كسرة من خبز جاف، وشيئًا من ملح، وكأسين من قهوة، فطعم وشرب وحمد الله، ونهض وهو مستيقن أنَّ الله قد عزم له على الرشد، ومزمع أن يسافر إذا كان الغد، وقد أنفق نهاره في الاستعداد لهذا السفر؛ فلم يكن بد من أن يحمل إلى نفيسة وابنتيها ما يسرهن، والله يعلم كيف احتال في ذلك وجدَّ في الحيلة، ولكنه سافر من الغد كما تعود أن يُسافر موفورًا كثير المتاع، وقد استخلف ابنه خالدًا على داره ومتجره، فلما وصل إلى القاهرة وانتهى إلى دار عبد الرحمن لم يُنكر شيئًا أول الأمر، فقد لقيه صديقه الشيخ باسمًا وقورًا مُرحبًا، ولقيته أم نفيسة باسمة عن ثغر محطم في وجه مربدٍّ قد عبثت به السنون، ولقيته نفيسة هادئة مطمئنة راضية، فأما الصبيتان فقد نمتا نموًّا حسنًا، فازدادت إحداهما جمالًا، وازدادت الأخرى قبحًا، ولكن عليًّا لم ينفق مع صديقه الشيخ يومًا وبعض يوم حتى أنكر كل شيء، وإذا هو يلعن الأيام في القاهرة كما كان يلعنها في المدينة، فقد تعرضت تجارة صاحبه في العاصمة لمثل ما تعرضت له تجارته في الإقليم؛ لا لأن صاحبه استكثر من النساء والولد فكثرت نفقته وثقلت أعباؤه؛ فقد كان عبد الرحمن صاحب نسك وقناعة وزهد في الدنيا، بل لأن القاهرة امتلأت بهذه الشياطين التي أقبلت على مصر تغزوها منذ أعوام فأفسدت فيها كل شيء.

قال عبد الرحمن: ولست أدري ما الذي سلط علينا هذه الشياطين؛ فقد كنا آمنين وادعين موفورين، ثم أصبحنا ذات يوم وإذا الشر يأخذنا من جميع أقطارنا، شياطين يأتوننا من يونان، وشياطين يأتوننا من إيطاليا، وشياطين يأتوننا من فرنسا، وشياطين يأتوننا من بلاد الإنجليز. صدقني يا أبا خالد إن الله قد غضب علينا، وقد بحثت كثيرًا عن أسباب هذا الغضب، فالله لا يغضب على الناس لغير سبب، وإنما هو قد عودهم أن يحسن إليهم تفضلًا منه، وألا يغضب عليهم حتى يستوجبوا غضبه بمنكر يأتونه، أو